

آستا.. مُعلمتي الجميلة

بقلم: ج. سكولسكي

ترجمها من الروسية أ. د. حامد طاهر

منذ زمن بعيد، وأنا أعيش في تاللين. وقد حاولت أن أدرس الأستونية، لغة البلد، التي لم أحفظ منها إلا بعض العبارات القليلة جداً.
مثل:

"من العيب عدم معرفة لغة الشعب الذي تعيش وسطه" أو "أنا لم أحضر الدرس" ومن وقت لآخر، تنطق مدرستي آستا كازبيك الجملة الأولى، أما الثانية فكثيراً ما كنت أرددها .

أنا أكبر من مُدرّستي بحوالي عشرين سنة . وهي تبلغ من العمر حوالي خمس وعشرين سنة .

تأتي آستا في الصباح مبتسمة . بدون ابتسامة ، لم تكن تظهر أبداً . ثم تبدأ في إعراب اسم ما من حالات الإعراب الأستونية الأربع عشرة ، ونقوم بعد ذلك بإجراء المحادثة ، التي تسمى: حرة .

مثلاً تسألني آستا:

-ماذا حلمت في الليلة الماضية ؟

وأجيب ببطء ، مخرجاً كلمة وراء كلمة بصعوبة شديدة :

-لم أحلم بشيء . لقد نمت نوماً هادئاً .. وأنت بماذا حلمت ؟

وتجيب مفكرة :

-حلمت بأنني اجلس فوق تاللين ، على شاطئ بحيرة يوليمست . وضجأة يخرج من البحيرة ملاك ، ذو لحية ، عجوز .. عجوز .. ثم يتكلم بإرهاق :

"انظري يا امرأة ، وقولي: هل المدينة ستكون مستعدة قريباً ؟"

أخمن في شكل حلمها الذي رأته، وأرى أنها تحدثني عن أسطورة شعبية تقول إن تاللين ستختفي من الوجود إذا ما سقط الحجر الأخير من المنزل الأخير فيها. عندئذ سيقذف الملاك الماء من البحيرة، ويغرق المدينة كلها.

إنني أعرف الأسطورة جيداً، لكنني أخفي ذلك. فقط. أسأل:

- بماذا أجبت ملاك البحيرة يا آستا؟

-أنا.. لم أجب بأي شيء..

اتسعت عينا آستا، وأصبحت أكثر استدارة، وذعراً. وكان للمعلمة، ستا مخيِّلة حية.

-إنما أسرعت إلى المدينة، ورحت أصبح في الشوارع: شيدوا.. شيدوا.. لا تتوقفوا دقيقة واحدة!

ثم تأخذ آستا نفساً، وتبتسم. وأنا أحب الابتسامات على الشفاة، غير الملموسة بحمرة الماكياج، ولما أخفي هذا عن معلمتي.

وتقول آستا الجميلة:

-طبعاً كل هذا اختراع. لكنني في مقابل ذلك كنت بالأمس مشتركة مع مجموعة عمال بناء، وقد ملّطت معهم بعض الجدران.

وأسعد لآن كلمات مثل "اختراع" و "ملطت" ينبغي أن تترجمها لي. وأسأل:

-وهل هؤلاء العمال أصدقاؤك؟

لواستطعت لم أسأل . فإن آستا تقوم أيضاً بالتدريس في مدرسة ليلية لعمال شبان . وفيها الكثير من البنائين الذين تصادقهم .

-طبعاً.

-وهل يعملون بصورة جيدة ؟

من الواضح ان السؤال يقصد إلى تحويل آستا للحديث عن المبدأ . وترك موضوع الدرس . ولكي تنقل لنا المفهوم على نحو اكثر كمالاً , تجري الحديث باللغة الروسية . وكم يسعدني هذا . فإنني أستغرق في تأمل ابتسامتها الحلوة , ونطقها الظريف لتلك اللغة , بالإضافة إلى قلب بعض الحروف المقاربة ماً , فإن لدي علاوة على سني الكبير , دراسة أعمق في علم النفس !

وتضطرب آستا عندما تقترب المحصة من نهايتها:

-مرة أخرى , أنا اليوم التي تكلمت وتكلمت .. لكن لا بأس , في المرة القادمة ستحدثون أنتم فقط وباللغة الاستونية .

-حسنًا .. أنا موافق .

لكن المحصة التالية ستكون في يوم الثلاثاء . وفي مساء السبت , وطوال الأحد , تسافر آستا للعمل في مزرعة جماعية , حيث تعد بعض المواد لصناعة الألبان , كما تجري " بروفة " أخرى في النادي مع مجموعة من الممثلين المهواة

الخلاصة: سيكون عند آستا من الأشياء ما تتحدث عنه . وأنا أجتهد في أن أجعلها لا تخفي شيئاً أبداً . لكن نادراً ما تتحقق الآراء التربوية لدى آستا أكثر من الرغبة الطبيعية

في المحصة التالية , بدأت آستا:

-سنذهب اليوم في رحلة متخيلة إلى المدينة . حديقة كادربورج . أنت رجّالة . تحدث .

-الحديقة كبيرة . في الربيع , الأشجار خضراء . وغير بعيد منها يوجد بحر بالتيسكو . إنه كالمسلسلة .

وتقاطعتني آستا:

-هذا ردي . فإن تلك العبارات قد عرفتها منذ عام ونصف . فكر في شيء جديد . إذا شئت عن العشاق , الذين يجلسون هناك على المقاعد
المرخامية

وأؤكد بصورة قطعية:

-إنهم يتحدثون عن الحب..

ثم أضيف , مفكراً:

-لكن المقاعد قديمة!

ويبدو جيداً أن الماحتياطي المضميل جداً من الكلمات الأستونية يمنع خيالي من التحليق!

وتتنهد آستا:

-لا يهم . سنخرج من الحديقة .. لكن إذا شئت : في محل أذات . أنت مشترٍ , وأنا بائعة .

وبسرعة أصبح:

-أحتاج إلى رف كتب.

-لا توجد رفوف كتب . لكن توجد مقاعد وثيرة , ومناضد , وأباجورات - أنت مثلاً: من المحتمل أن تكون لديك شقة جديدة . وينبغي أن تكون مريحة . مثلاً بنفسك: تجلس في مكان هادئ , ومن المسقف يسقط ضوء خافت ..

وأسأل متعمداً الله:

-وأنت .. متى تحصلين على شقة يا آستا ؟

وتعجب آستا . من الواضح أن السؤال عديم اللياقة . فهي تستأجر حجرة في داخل شقة بمكان ما خارج المدينة . ومع أنها تأمل في أن تتبدل الحال , إلا أنها ما زالت سيئة .

وأحاول الاعتذار فاقول:

-لا تغضبي يا آستا . فأنا ببساطة لا أهتم بالأثاث الغالي . ما يهمني فقط هي أرفف الكتب.

-حسنًا .. حسنًا . لنذهب الآن إلى محل ثياب رجالي . أنت البائع وأنا المشتري .. أرني هذه البدلة الجميلة.

-إنها غالية جداً . تساوي أكثر من 200 روبل.

-لا بأس . عندما تريد أن تدخل علي السرور . فلا تفكر في النقود.

-لكن أي سرور تحصلين عليه من شراء بدلة رجالي ؟

-البدلة تناسب زوجي

وضجأة أسألها بالروسية:

-هل أنت متزوجة يا آستا؟

فتجيب بلهجة واعظ:

-أية جرأة.. إنما نحن نتمرن بالملغة الأستونية!

وما تلبث آستا أن تخرج. وأظل أنا خلف نافذة الفصل.

أشاهد شعرها الناعم وهو يتطاير في الريح. وأقول لِنفسي:

-ربما لو كنت أصغر عشرين سنة.. كانت دروسنا تسير على نحو أكثر نجاحاً!